# شفيق معلوف والشعر المهموس

بقلم ادوار حنين

سواء اجاء اشياءه من مخارمها ، ام ولج اليها من الباب الواسع ؛ وسواء انطرق الى أشيائه من جوانبها ، ام نزل عليها من القمم ؛ وسواء أعالج موضوعه بالنفس القصصي — الملحمي ، ام عالجه معالجة الوصاف المصور — فان شفيق معلوف يبقى شاعر الهمس والبوح ، شاعر البث والوشوشات .

فهو إن همّ بالدخول الى « عبقر » ، عالم الجن والشياطين ، عالم الكهان والسحرة ، عالم البغايا والعرافين ، عالم التخمة والنهم ، التعتعة والانفلات ، الزمجرة والالم ، المرارة والهزء ، عالم المراد الضائع والامل المفقود — إن همّ بالدخول الى « عبقر » حسبته ينقل بين يديه عدة الشعر التي لهوميروس ودانتي ، فتتهيأ معه — اذ يعدك بالكثير — لنفس محموم جارف ، وخيال جامح مبدع ، وتصور منشىء طواف .

« ... هذي عبقر ما ترى  وضجة الجن الذي تسمع
«عزت على الإنس فن حولها  أبالس الأبراج تستطلع
جباتها الاربع مرصودة  تحرسها الزعازع الاربع
ما أفلت الإنس من زعزع  الا تلقى صدره زعزع »

ثم لا تلبث ان تراه يميل الى « جنية تغني » وينعطف على « سرب من البغايا » ، ويتمهل امام « اناهيد » ثم ينتهي الى « همس الجماجم » .

وعندما يقف بك في حضرة « اميرة الجن » تعد نفسك باروع مما في عبقر ، بأجلته وأغناه ، فاذا به يعيدك الى بوحه وهمسه ، فينبئك ان اميرة الجن هذه :

«مُستبروح ليس من عبقر  غادرها غرقى ببحرانها »

فخرج بها هكذا ، من عالمها وداخلها الى عالمه .

وهو إن اشرف على خرائب بعلبك جبهته عظائم تلك الخرائب كما تجبه تائها إشراقة نور بهية فلا يتمالك ان يصرخ :

«الله اكبر كيف كانت حالها  آكام مجد هذه اطلالها »

وما ان يصحو من نشوة النور البهي حتى يجمد ، بقليل من الكلام ، كل موضوعه ، على جلال ذلك الموضوع ، فيقول :

«ربضت على صدر الزمان واوثقت  كلتا يديه فجار كيف ينالها »

ويقول :

«رضم لو انك سرت في جنباتها  لخشيت ان تهوي عليك ظلالها»

ويعفيك بعد هذا من كل ما كان في نفسه عن خرائب بعلبك ، فينصرف الى « أفروديت » يتخيل ، يتشمم ، ويصور ، ليغرق ، من ثمة ، بالبوح الدفيء

على ان هذا لا يعني ان شاعرية شفيق المعلوف لا تتسع او لا تلين للنفس الملحمي الذي هو — في جملة ما هو — رحابة في التخيل والتصور ، قدرة على الخلق واحياء الرميم ، براعة في تصوير التصود ، ونغم فخيم مديد ، على كثير من الافاضة ، وحسن الديباجة ، والاداء .

غير اني ارى شفيق معلوف اوثق ارتباطاً بعالمه المعاش الناعم ، عالم مرهفات الاحاسيس ، والخواطر الملتمعة النابضة ، والملاحظات الخاطفة الثاقبة منه بالعالم المفتعل المصنوع ، عالم الاخيلة والتصورات والاشباح ، عالم الناس الذين من أجلهم وجد ذلك العالم ، لا من اجل صاحبه الشاعر .

هذا الشعر المهموس الذي يفترق عن شعر الخطابة والانشاد ، فيجد مقوماته على غير ما يجد شعر الخطابة مقوماته فيه ، والذي باشره ، في العربية ، بشار ، وابو نواس ، ومهيار الديلمي والبحتري ، وابن الرومي والمعري ، ثم تألق على يد الاندلسيين وشعرائنا المغتربين .

هذا الشعر الذي يعبر بأنصاف الكلمات ، فيتوسل الرموز والايماء ، ويسعى بالدعة والبساطة والايحاء الذي يقول فيه الشاعر وكأنه لا يقول ، فينزل على النفس نزول الندى والرخ الرخيم الخافت .

هذا الشعر الذي ينساب من القلب الى القلب على جناح النبرة الصادقة ، والكلمة الحلوة ، والهمس الطويل الصابر ، حتى كأن فيه كان قول المعري :

« اذا قلت المحال رفعت صوتي  وان قلت الصحيح أطلت همسي»

هذا الشعر المهموس له سيدان في لبنان : صلاح لبكي ، وشفيق المعلوف .

***

وشفيق المعلوف هو ، الى ذلك ، شاعر الوثبة والمفاجأة الحلوة . فلا تراه هادئاً مطمئناً في تساوق السرد والوصف حتى يثب عليك ، ريحاً من المجذاف ، ماردا من القمقم ، بكلمة ، بصورة ، باستعارة او تشبيه ، تخلخل ما كان بينك وبينه من تشارك في الناعمات ومن انسجام ، فيقذف بك الى ابعد

البعيد كأنك دمية بين يديه، على ما تراه فاعلا في وصف الديك:

طأ الثرى ببرثن تحسبه  يطبع نجماً كلما مس الثرى

او في وصف الفلاح:

ضنت عليه بالدموع  عيونه فبكى جبينه

او في وصف الراعي يعزف:

« كأنما الجرح جرح مهجته  كان على نايه له ثقب »

***

وشفيق معلوف شاعر الخاطرة الخاطفة الرهيفة، على ما في قصائده « بسمة » و « خيبة » و « الحباحب » و « البستاني » و « زهرة في صخرة » و « التاج الاحمر »، وهنا وهناك في تضاعيف شعره « وعلى ما في قوله لابنه:

لا ترج شعري ان شعر  ابيك ليس بمعدك
ان لم تخلد انت نفسك  ما انا بمخلدك
من مخبري فلربما  نلت الخلود على يدك »

وغني عن القول ما يجب لهذا الشعر المنقى من قدرة على الايجاز، وحس بمرامي الكلم، وبراعة في الاشارة، ولطف في الاداء.

***

ان شفيق معلوف من أبرع من غرف من الغرب، واصدق من صب في الشرق مغترفه، بأسلوب، كان في البدء وما زال، اسلوبه الانيق المميز. فلم يقطع اعترافه بين اهله وبينه، ولا قطع استحداثه بين القديم وشعره. حتى اذا قام فتى من قريش. وقرأ لشفيق المعلوف، عرف الفتى وجهه ولسان قومه فيه على التماعات واحاسيس قد تعجز الفتي القرشي لانها من عصر غير عصره، وحياة غير الحياة التي تعود ان يعيش

انني لا اعرف شاعراً في الشعراء كان عليه، كشفيق المعلوف، ان يجتاز طريقه الى الجلجلة مرتين: مرة ليزيح عن اسمه شهرة رفعت المعالفة - وفوزي بوجه خاص - الى ذروة من ذرى الشعر عالية، فكان عليه ان يمزق الاقماط التي غلفته ضمن نطاق معين، وان يفتق الحدود؛ ومرة ثانية ليحمل اسمه من حدود ما وصل اليه السابقون ذووه الى حد ما هو عليه الآن.

**ادوار حنين**

# الشاعر والموت

يا شاعر الكون المعانق في الدجنة أدمعه
حوّم على هذا الوجود .. على المجالي الممتعه
واشرب من الالوان في الروض الانيق موزعه
واحبس بجنبيك الحصاد .. من الفصول الاربعه
وانعم بما رسمت انامك الدقاق المبدعه
وافتح فؤادك للحياة ... وذق أفاويق الدعه
فغداً ستمضي ذرةً مسكينة في الزوبعه
لن تشهد الافق الوسيع .. ولا النجوم مشعشعه
لن تشهد الاطيار في صمت الأماسي مسرعه
لن تشهد الجبل الأشم وروحه المترفعه
لن تشهد الامواه في جرياتها متدفعه
لن تشهد الزهر البهيج .. ولن تجمّع أروعه
لن تشهد الحسن الذي أظمى الحنين وأشبعه
والأهل .. والبيت الحبيب .. وجلسة في الصومعه
يا شاعر الشفق الحزين .. الليل يحفر مضجعه
فانثر أحاسيس الغروب .. على الدروب .. وسر معه

***

يا شاعر الشفق الحزين .. خبا الضياء ولن يؤوب
ومضى الزمان وملء كفيه جراحات الشعوب
وغدوت جمجمة .. وحفنة تربة .. وفراغ كوب
الا رسومات الاحاسيس المخلدة اللهيب
هو شعرك النامي على فجر الحياة .. على الغروب
هو خلد هذا القلب .. هذا الطفل .. يهزأ بالخطوب
هذا الحنان الشاعري يلوّن الأفق الكئيب
ويعيش في الارواح كالنبع الخفي على الجديب
يا شاعر الشفق الحزين .. وخالق النغم الطروب
كم من ضحىً برعمته في حسك النضر الخصيب
ورميت منه النور في روح يعيش به المغيب
كم من فؤاد مزقته مخالب الزمن العصيب
سينام في هذي اللحون .. كدمعة فوق الصليب
الساهرون من الأسى .. والعائدون من الحروب
والمنهكون من الحياة .. الساقطون على الدروب
فيأتهم في ظل قلبك جنة الأمل الحبيب
قلب يعانقه التراب .. وفنّه بين القلوب

القاهرة  **كمال نشأت**

« من رابطة النهر الخالد »